سورية في القرن السابع عشر

(٢)

لخصنا في الجزء الماضي رحلة المستر هنري مندرل الى ان وصل القدس الشريف وها نحن نلخص بقية رحلته قال

وقع يوم الجمعة الحزينة عند اللاتين في ٢٦ مارس وهو عندنا بعد ذلك باسبوع[1] فذهبنا الى كنيسة القيامة مع قنصل فرنسا ووجدنا الحرس على الابواب يمنعون كل احد من الدخول الاَّ من دفع الرسم المعيَّن لذلك وهو يختلف باختلاف الناس والبلدان والغالب ان الافرنجي يدفع اربعة عشر ريالاً وممن دفع هذا المبلغ حقَّ لهُ الدخول والخروج كلما كانت الابواب مفتوحة . وقد فتحت الابواب لنا ذلك اليوم فدخلنا ثم أُقفلت وبقيت مقفلة ونحن داخل الكنيسة الى يوم الاحد وهو احد الفصح ففتحت حينئذٍ وظهرت البهجة على وجوه الرهبان بعد ان كانوا عابسين فخرجنا وعدنا الى الدير حيث تغدينا . ثم ذهبنا لمشاهدة بعض الاماكن ومنها غار يقال ان ارميا النبي اقام فيه وهو يكتب المراثي وهو الآن تكية للدراويش . وسرنا من هناك الى قبور الملوك ولا ادري لماذا سميت كذلك لانهُ ما من احد من الملوك دفن فيها لا من ملوك اسرائيل ولا من ملوك يهوذا الاَّ حزقيًّا على مايظن . ويُدخل الى هذه القبور من الجهة الشرقية بنقب منحوت في الصخر فيصل الداخل الى غرفة فسيحة طولها اربعون خطوة في مثلها عرضاً وهي منحوتة في الصخر ايضاً والى جنوبيها رواق طولهُ تسع خطوات وعرضهُ اربع وعليهِ نقوش تمثل الاثمار والازهار وفي طرف هذا الرواق الممرّ الذي ينزل منهُ الى القبور وهو يصل اولاً الى غرفة قائمة الجدران منحوتة في الصخر الاصم ويوصل منها الى غرف أُخرى مثلها وكان في كل غرفة منها ناووس من الحجر موضوع في حفرة لهُ في الجدار ولكل ناووس غطاء من الحجر نقشت عليهِ الاكاليل ولكن اكثر هذه الاغطية قد كسر الآن . وكان لهذه الغرف ابواب من الحجر تدور على صارها ولم يزل باب منها في مكانهِ

وعدنا من قبور الملوك الى المدينة ورأينا قرب باب الناصرة غاراً مملوءاً بالماء الآسن قيل انهُ السجن الذي سجن فيهِ ارميا النبي

وفي اليوم التالي وهو ثاني الفصح خرج المسلَّم واعوانهُ لمرافقة السيَّاح الى نهر الاردن

(١) لان حساب البروتستانت كان لا يزال مثل الحساب القديم

حسب العادة إما خوف حقيقي من البدو في الطريق او طمعاً بالضريبة التي تضرب على السياح لانهُ يفرض على كل منهم اثنا عشر ريالاً اذا كان عثمانياً وستة ريالات اذا كان من خدمة الدين . وهو فرض على كل سائح سواء ذهب لمشاهدة الاردن او لم يذهب . فخرجنا من باب ستي مريم (اسطفانوس) وكنا نحو اثني عشر نفساً من كل ملة وسلكنا على وجه الارض فعبرنا وادي يهوشافاط ومررنا على جبل الزيتون ووصلنا الى بيت عنيا وهي قرية صغيرة على بابها برج قديم يقال انهُ بيت لعازر . وهناك قبر منحوت في الصخر يقال انهُ المدفن الذي دفن فيهِ وقام منهُ وهو مقام محترم عند المسلمين يضربون ضريبة على من يزورهُ من المسيحيين وما دامت تلك الاماكن تأتي بالربح لحافظيها ومحترميها فهي تحفظ وتحترم ولو كانت من شعائر المسيحيين خاصة . وعلى رمية سهم مكان يقال انهُ منزل مريم المجدلية وتحتهُ في الوادي عين الرسل يقال ان الرسل كانوا يشربون منها في ترددهم بين اورشليم واريحا . والتلال والاودية بعد ذلك قفراء قاحلة وتدل الدلائل على انها كانت شجراء معمورة في قديم الزمان وهي تطل على غور الاردن وسهل اريحا فوصلنا الى هذا السهل بعد سير خمس ساعات من اورشليم

واريحا قرية صغيرة قذرة فيها بيت مربع يقال انهُ بيت زكا . وبنا على غلوتين من اريحا ونهضنا في اليوم التالي وسرنا نحو الاردن فبلغناهُ بعد ساعتين ماريين في سهل قاحل لا شيء فيهِ غير الحمض والقاسول ونحو ذلك من نبات الاراضي السبخة . والملح ظاهر على وجه الارض في اماكن كثيرة وضفاف الاردن شجراء تغطيها اشجار الطرفاء والصفصاف والدفلى فتحجب ماءهُ عن النظر

ولم نكد نصل الى ضفة النهر ونترل عن دوابنا حتى سمعنا اطلاق البنادق علينا من الضفة الاخرى فان البدو رأونا نازلين الى وادي الاردن فقاموا للقائنا وازعاجنا لان رصاصهم لا يصل الينا فخاف رجال الدين منا ولم يفرهم الثواب الذي يتوقعونهُ في الحياة الاخرى على المخاطرة بنفوسهم في الحياة الدنيا اما تمسكاً بهذه الحياة مع ما فيها من المشاق واما شكاً بالحياة الاخرى مع ما فيها من الامجاد

ولما كف البدو عن اطلاق بنادقهم خلع بعضنا ثيابهم واغتسلوا في النهر وقطع بعضنا الاغصان من اشجاره ليأخذوها معهم تذكاراً لزيارتهم . وعرض النهر هناك نحو ستين قدماً وعمقهُ اكثر من قامة

ولما اتممنا هذه الزيارة عاد بنا المتسلم الى وسط السهل وعرضنا واحداً واحداً حتى لا يفوتهُ شيءٌ من الجعل المفروض علينا وكنا على مقربة من بحيرة لوط فالتمسنا منهُ ان يأذن لنا بالذهاب اليها وان يعطينا الحرس اللازم فاذن لنا

والى الشرق والغرب من بحيرة لوط جبال عالية والى الشمال سهل اريحا حيث يجري نهر الاردن الذي يصبُّ فيها والى الجنوب سهل فسيح على مدى النظر يقال ان طولهُ ٢٤ فرسخاً وعرضهُ ستة فراسخ

وعلى شاطىء البحيرة حجارة سوداء تشعل فيخرج منها دخان كثيف ورائحة خبيثة فتثقل زنتها ولكن حجمها يبقى على حالهِ وقد رأيت قطعاً كبيرة من هذه الحجارة في دير مار يوحنا في البرية وهي مخوتة ومصقولة كالمرمر الاسود وتسمى حجارة البحيرة (١)

ويقال ان الطيور لا تطير فوق بحيرة لوط واذا حاولت الطيران وقعت وماتت لكنني رأيتها تطير فوقها ولا ينالها سوء . ويقال ايضاً ان ليس في البحيرة سمك ولا محار على الاطلاق وهذا ايضاً لا اظنهُ صحيحاً لانني رأيت صدفاً على شاطئها والصدف لا يكون الا حيث يكون المحار (٢)

وماء البحيرة صافٍ جداً شديد الملوحة في طعمهِ مرارة وقرف . حاولتُ السباحة فيهِ فوجدت انهُ يحملني بسهولة ولكن لا كما قال بعض السياح ان الانسان لا يغرق فيهِ واذا غاص الى صرتهِ رفعهُ الماء حالاً الى قدميهِ

وفتشت عن آثار المدن القديمة التي يقال ان الله خربها وجمع ماء البحيرة فوق خرائبها وان الدخان لا يزال يصعد منها فوق الماء فلم ارَ شيئاً من ذلك

---

(١) حجارة البحيرة . قال ابن البطار هي حجارة دقاق سود ان وضعت على النار تولد منها ماء يسير توجد في بلاد الغور وذلك النزل المحيط بالبحيرة من شرقيها حيث يكون قعر البحر

(٢) قولهُ انهُ رأى الطيور تطير فوق البحيرة ولا ينالها سوء صحيح . اما البحيرة نفسها فلا يعيش فيها من الاحياء الا بعض الجراثيم مثل باشلس التنوس (الكزاز) رآهُ لورنه في الطين على شاطئ البحيرة الشمالي . ولعل الاصداف التي رآها متدرل اصلها من الاردن تذهبها المياه الى البحيرة فمات المحار وبقي الصدف . وماء البحيرة فيهِ يجور ٢٥ في المائة من المواد الذائبة اهمها كلوريد الصوديوم اي ملح الطعام وكلوريد المغنيسيوم وكلوريد الكلسيوم

ولم ار ايضاً تفاح صدوم (١) الذي يقال انهُ هناك ولا رأيت شيئاً من الاشجار التي يمكن ان تُثمر ذلك الثمر . ثم عدنا اوراجنا الى ان وصلنا الى الخيام التي بتنا فيها في الليل الماضي

وقد رأيت هناك شجر الزقوم (٢) وهو نجم شائك صغير الورق لهُ ثمر كالجوز الصغير يسحق العرب نواتهُ و يغلون الرب و يستخرجون منهُ زيتاً يستعملونهُ بلسماً و يفضلونهُ على بلسم جلعاد (٣) وقد احضرت حجراً منهُ واستعملتهُ فوجدتهُ نافعاً جداً

وقمنا في الصباح وعدنا الى اورشليم ولم ندخلها بل واصلنا السير الى بيت لحم ومن اورشليم الى بيت لحم ساعتان وشاهدنا في الطريق اولاً البيت الذي يقال انهُ بيت سمعان الشيخ الذي اخذ السيد المسيح على ذراعيهِ وهو طفل . وثانياً البطحة التي يقال ان العذراء استراحت تحتها وهي آتية بابنها الى الهيكل . وثالثاً دير مار الياس وفيهِ صخر يقول رهبان الدير ان النبي ايليا كان ينام عليهِ فبقي اثر جسمهِ فيهِ . ورابعاً قبر راحيل الذي يقال انها دفنت فيهِ ولعلها دفنت هناك لكن القبر الحالي حديث البناء

ولم نكد نصل الى بيت لحم حتى اخذنا نزور الاماكن المقدسة فيها وحولها كالمذود الذي ولد فيهِ المسيح وبرك سليمان والمكان الذي قيل ان الرعاة كانوا يحرسون فيهِ مواشيهم وبئر داود والقناة التي كان الماء يجري فيها من برك سليمان الى اورشليم مسافة خمسة فراسخ . وستة

واسهب المؤلف في وصف سائر الاماكن المقدسة في اورشليم وحولها ويحسن بعلماء الآثار ان يقابلوا بين وصفهِ لها وبين حالها الحاضرة ليعلموا ما طرأ عليها من التغير منذ ايامهِ الى الآن

ثم وصف فسحة الشرقيين وفيضان الدور والطريق الذي عاد بهِ الى حلب ماراً بدمشق كما سبجيء

---

(١) هو الحدق (Solanum sodomeum) قال ابن البيطار (هو اسم عربي معروف في الاندلس وما والاها تفوح من التفاحة برّي ينبت عندهم في اريحا وارض الغور جميعهِ و يعظم بناتهُ حتى يكون اطول من شجر الباذنجان وفيهِ شوك محنيٍ وثمرهُ يكون اخضر ثم يصفرّ وقدرهُ دون قدر الجوز وشكلهُ شكل الباذنجان سواء ورقهُ ورقهُ وغمرهُ واغصانهُ) الى ان ذكر انهُ معروف باليمن وارض الحبشة ومصر . وهو سام جداً

(٢) الزقوم شجر شائك يعرف عند علماء النبات بالاطيح المصري (Balanites aegyptiaca) يستخرج من ثمرهِ زيت يسمى دهن الزقوم و يسمح بهِ كالبلسم المكي

(٣) هو البلسان (Balsamodendron gileadense) كان ينبت في عين شمس على مقربة من القاهرة لكنهُ لا يوجد الآن الاَّ في الحبشة واليمن و يظن انهُ كان ينبت قديماً في ارض جلعاد